فصل من عالم الأميري

سعيد ساجد الكَرواني

عمر بهاء الدين الأميري

بعد طول تأمل، ظهر لي، بما أن أكبر عدد ممكن من دراسة شعر عمر الأميري رحمه الله يحتضنه ديوانه «ألوان طيف»، أن أقدِّم هذه المغامرة، كيف لا؟! وبهاءالدين يقول بذات الصدد: «ألوان طيف» ثاني ديوان أنشره بعد «مع الله» خمسون قصيدة في فنون مختلفة(١) (...) بدأت أقول الشعر وأنا طفل في التاسعة! وأحرقت ديواني الأول وأنا ابن اثنتي عشرة، واجتمع لي منذ ذلك الحين، حتى شارفت الخامسة والأربعين، عشرون ديواناً لم أنشر منها بعد إلا «مع الله»!

وهو الجانب الإلٰهي من شعري، وفي مقدمته ذكرت: «قيل لي: هلا بدأت بنشر شعرك؟! قلت: أبدأ ... لا .. لماذا؟! أبدأ ... متىٰ ... وبماذا؟! أصداء طفولة -بواكير الشباب- قصتي مع الشعر -مع الله- في بلادي -أنين وحنين- صراع - خماسيات- مع القاضي الزبيري(٢)- رجال وأشباه- عواطف وعواصف- جمال وهوىٰ - الموؤودات- أفانين- ألوان طيف؟!

قلت أبدأ «مع الله» ولكنني إن فعلت، أخشىٰ شبهة النفاق، فما كل شعري «مع الله»، ولقي ما لم أتوقع له: حفاوة في عوالم العرب والإسلام والاستشراق! وعقوقاً في وطني الصغير «سورية»!! وكان الذي توقعت؛ فقد تلقاني قراء الديوان ونقدة الأدب - غير ملتفتين إلىٰ ما ذكرته في مقدمته- علىٰ أنني «صوفي كبير»! «شاعر إلٰهي» ! «نسر هابط في ظلال المحاريب»!!، ويا ليتني كنت كذلك! إنه مقام سام أصبو إليه، ولا أقدر عليه، فإنني عنه رهين، رهين أغلال الحمأ، وأوصاب الحياة، ولأواء الظمأ الإنساني في نفس شاعر، أريد تساميا، فأظل أرنو إلىٰ الجوزاء، في كبد السماء، وأصفو، والكدورة في كياني، ألست جبلت من طين وماء؟! إنني إنسان، إنني «فنان»، إنني ألوان، «ألوان طيف»(٣). إن ذلك كله، هو الأمير، وما الأمر إلا لتواضعه المنبجس من شموخ الإسلام العظيم... وهكذا ينبغي أن يكون، وإلا لما استحق كل ما استحق. عزمت إذن علىٰ الخوض في «ألوان طيف» لقيمته، وكثرة قصائده التي تكفي لمعرفة الفضاء الشعري عند الأميري، وهو يقول في هذا الشأن كذلك: «وصلني مزيد من الدراسات والتعليقات علىٰ ديواني «مع الله» وكلها تردد «الصوفي الكبير» فأخذني رهب، من ثقل هذا الإسم!! وبدا لي، أن أترك «أبوة وبنوة» للأقدار التي أبطأت به -لا سيما أنه لون واحد في شعري- وأن أبادر إلىٰ نشر ديوان يعطي عني صورة مستوفية، أو تكاد تقرب حقيقتي للناس كما أنا... لا كما يُظَنُّ بي، أو يُراد لي، وهكذا كان ظهور ديوان «ألوان طيف»(٤).

فالحمد لله، لقد طابق اختيار الدراسة -كذلك- الصورة التي أحب الأميري رحمه الله أن تتشكل في أذهان القراء الكرام؛ فكان العنوان وَفْق ذلك ما قد علمت. إلا أنني الآن، لن أحتفل إلا ببعض الارتسامات علىٰ أن تُضاف إلىٰ محاور أخرىٰ لتشكل كتيباً أرجو أن يرىٰ النور قريباً. وحق للأميري أن يطلعنا علىٰ تجربته مع الديوان، لأنه مهما تحدث الناقد وتحدث، فلن يبلغ ما أراد الشاعر بالتمام والكمال، أما الاستثناء، فيثبت القاعدة ولا ينفيها، ونذكّر هنا بابن جني مثلاً، ومعرفته بأشعار المتنبي أكثر من الشاعر نفسه باعترافه. «اصطنعت في «جبل الاربعين»(٥) رأس «أريحا»(٦)

المشرئب، بيتاً تصطاف فيه الأسرة، وأتخذه دار عزلتي، ألوذ به من وعثاء الزمان، و«منغصات العيش في حلب»! خِلَساً من خريف ... وأياماً من ربيع، أفرغ فيها لذاتي، طلقا من إسار الناس، أعد لنفسي أبسط الطعام أحيا علىٰ السجية، وأنطلق مع الشعر «هو في غربته يأنس بي ... وأنا في لحنه أشكو الدنىٰ». أسرح ولا أمرح! أجعل الخبز فتاتاً في دروب النمل، أنقذ الفراش من شباك العناكب، أستمتع بتأمل العصافير، تختلس أثمار شجري بنهم، وتغرد في نشوة، أتسلىٰ بالقطة الشرود والمستوحشة أهّلها برّي بها، فأخذت تأنس بي وتهرّ لي، تثب إلىٰ حضني، تنطح يدي، وتلعق أصابعي:

والهرة الشعراء تنطحني ... وتمد أيديها علىٰ ركبي
كسلىٰ تشم أناملي ملقاً ... وتموء في رفق وفي أدب
وتعضها هوناً وتلعقها ... ولسانها كالمخمل الزغب
وتعوق خطوي في تدللها ... وتسير إما سرت في طلبي
فإذا جلست جثت على قدمي ... والرأس معكوف على الذنب

(شبح الخريف ٣٠٠/ ٣٠١)

في وحدتي

في وحدتي حتىٰ الفرا ... شة خلفت خدي وطارت
ورمت بهيكلها علىٰ ... بلور نافذتي ودارت
ففتحتها حتىٰ تطير ... ولست أدري أين صارت

١٧٨/١٧٧

ألتمس في الزهر والشجر وفاء وصفاء أفتقدهما في البشر:

في غلق

وصحاب في جدال ... ومضي غير صائب(٣٩٩)
فإذا واتتهم الأيام ... فالربان سائب(٤٠٠)
ضل من يأمل أن يقهر ... باللغو المصائب(٤٠٠)
خاب في الناس اعتمادي ... ومضائي غير خائب
كلما بادر بي عَزْ ... مي إلىٰ شم المطالب
ردني صحبي إلى مُرْ ... تَهني من غير صاحب
فحياتي غلق في ... غلق، والدهر دائب(٤٠١).

في هذا الزمان حيث تبحث عن الخلان لتجد الخذلان، وصدق ما نُسب إلى الإمام علي رضي الله عنه:

وما أكثر الإخوان حين تعدهم ... ولكنهم في النائبات قليل

ولكن ليس هذا الأمر غريباً في هٰذا الواقع الغريب، حيث صار المعروف منكراً والمنكر معروفاً، إذ انكفأ الميزان:

يار حمة الله

نعيش في عصر موازينه ... في الحق قد آلت إلىٰ ضده
هزاله أفعل من عزمه ... وهزله أمثل من جده
أما أخيَّ واحد في الدنىٰ ... يَحْبُوكَ ما تحبوه من وده؟
قد تعب الحر، وأعياه في ... دنياه، ما يعجز عن عده(٤٢٥)

لا شك أنه شعور حاد حين يتنكرك الأصحاب، لا يعرفه إلا من ذاقه... أصنع بالأوهام من هيولي الغمام عرائس الأحلام. أملأ من أعناب الإشراق دنان الآفاق، وأشارب

امتلك الأميري نواصي عبقرية فذة وشاعرية متألقة في مهارة فائقة

بنات الأذواق سلاف الأشواق، أبكي بدمع الغروب الحزين، وأفتر مع الفجر البسام، وقد أرسل من القلم، مداد ألم، وأخط في السطور بوارق سرور، أسكب المشاعر شعراً، من كيان حيران، بين أنّىٰ وكيف!؟ في أشكال وألوان «ألوان طيف» وحي سنواتي الخمس الأخيرة يزيد عن أربعمئة قطعة، منها القصيدة تبلغ أبياتها المئتين! ومنها الرباعية في بيتين، وفي هذا الديوان مختارات، موضوعاتها أفانين متباينة متلاقية، نبات مختلف ألوانه يسقىٰ من ماء واحد، ولعلها تبرزني كما أنا، وتنقذني من شبهة النفاق، وسمة الصوفية، التي أكبرها نقية تقية، ولكنني لا أستحقها!!

هذا الديوان أضاميم شوك وزهر، من نتاج شطر من العمر، جزء يسير ، ولكنه قد يَكفي، لإظهار ملامح شاعر، والتعريف بإنسان، إنسان، إنه أثارة من شعري المسطور.(٧).

شاعرية متألقة:

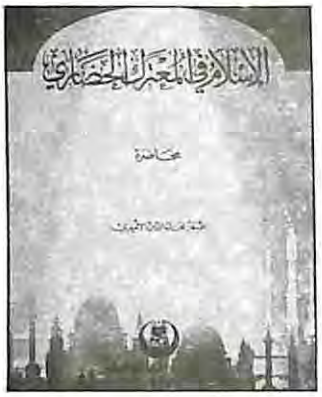

مَن مِن أصحاب العقول والقلوب لا يعرف الأميري عمر؟ ومن من العرب والمسلمين، لا يعرف قيمة الشاعر المفكر العملاق بهاء الدين الأميري، مَن مِن الشعراء والنقاد والأدباء، لا يعرف صاحب الدواوين الثلاثين التي تحكي قصة (العبقرية) الفذة، والشاعرية المتألقة، اللتين امتلك الأميري نواصيهما في سبحات روحه الشفيفة، وعروج نفسه ذات الألق الحضاري المرسوم بذوق إسلامي رفيع، هيهات أن يكون في غير أصحاب النفوس الكبيرة، والقلوب الحية، والعقول التي استنارت بنور الربانية، فهفت إلىٰ الحق والحقيقة الإلٰهية، فصاغت من حاملها شاعراً ذواقاً، جميل الوجه واليد واللسان، جميل المحيا، ويحب الجمال ويهيم فيه... فكان مثلاً حياً لذوق رفيع ... رفيع ... رفيع، وخلق تسامىٰ وتسامىٰ، حتىٰ صار مضرب المثل مدىٰ الحياة المريرة التي ملأها شاعرنا العظيم بألوان زاهية في ذكريات حبيبة ضمخت حيوات أصداقائه ومعارفه وتلاميذه بأشذاء روحية لا تبلىٰ على الزمان، (...) وعندما سألته عن صحته في آخر مكالمة هاتفية في مهاجره في «المرهورة» المغربية، أجاب:

ماذا يُهمك من صحة رجل أكل عمره؟ اسأل عن صحة أحوال المسلمين، فالمسلمون مرضىٰ وأحوالهم بائسة وتعيسة، تدمي القلب...

هيه يا أبا البراء ... يا بقية بقايا الصالحين والعمالقة في دنيانا ... لقد ثويتَ إلىٰ جانب رسول الله ﷺ، فنعم الثواء ... وهكذا أوصيت وكان لك ما أردت ... وكان لنا تحت كل نجم، قبر حبيب نبكيه، في زمن لا يجوز فيه البكاء...»(٨).

إنه فيض غامر من الشاعرية، والرؤىٰ المستوحاة من نبع الإسلام. تمتزج في قصائده صوفية الحب بقيم الإسلام وقضاياه، واستجلاء المواقف لاستنهاض العقيدة، مع رَصْدٍ نابضٍ بالإحساس لكل ما يستجد في ساحة الأوطان الإسلامية واستشراف المستقبل الذي تتطلع إليه الأمة، في الحرية والكرامة»(٩). كان موغلاً في التفاؤل والأمل رغم كبر سنه، رحمه الله رحمة واسعة، كان موغلاً في الاهتمام بقضايا الإسلام والمسلمين، كنت أقرأ في محياه كتاباً يمتد في ذاكرة القرن العشرين، أي روح حمل ذلك الجسد الطاعن في الإصرار؟! إصرار النقاء والطهر رغم انغراس العفونة في تفاصيل حياتنا العربية المريرة؟! أي نفس شعت من تلك الانحناءة الأبوية؟! أية طاقة كان يحملها ذلك الاهتمام بقضايا الأمة الإسلامية؟!(١٠).

* فروسية نادرة:

كان رحمه الله، فارساً ورائداً طموحاً في ميدانه، شديد الغيرة علىٰ الأدب والثقافة الإسلاميين، فناناً مرهف الحس والوجدان، ومربياً ومرشداً لكثير من الكتاب والأدباء داخل المغرب الأقصىٰ -حيث استقر منذ ثلاثين عاماً- وخارجه(١١)، ثم إنه يستحق بحق صفة شاعر الإنسانية المؤمنة وأمير الشعراء الإسلاميين، للنصف الثاني من القرن العشرين قاطبة، الذي يوافق أمير الشعراء في النصف الأول، وهو محمد إقبال في أقصىٰ شرق العالم الإسلامي(١٢).

إن الشاعر النموذجي الذي تتوافر فيه كل خصائص الشعرالإسلامي، هو الشاعر عمر بهاء الدين الأميري -رحمه الله- لأنه استطاع ببراعة فائقة أن يوفق بين المضامين

هذا الفارس شديد الغيرة على الثقافة الإسلامية وعلى التراث

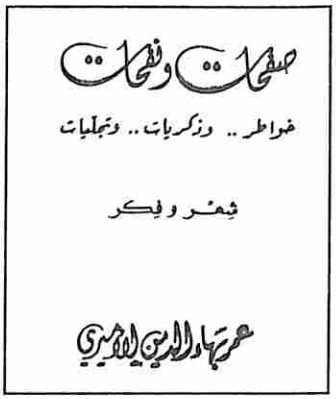

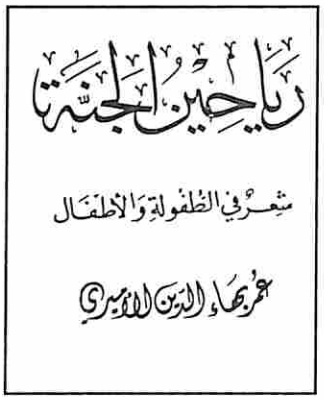

يتبنّىٰ من الناحية الفنية ما أسميه بالرومانسية الروحية، وأعني بها الانطلاق بالنفس والروح والخيال في أعماق الذات البشرية وأعماق الشخصية المسلمة وأعماق ذاته في المناجات والروحيات. فإذن نحن أمام خيال ابتكاري لا يضرب في مجالات الشرود والانطلاق المغرقة، ولكنه جعل من النفس الإنسانية والمسلمة، أفقاً أوسع من آفاق الطبيعة فتشعر أنك أمام عوالم بلا حدود، متسعة، مترامية، لا عالم واحد، ذي نطاق محدد، واستطاع الأميري أن يمزج الحقيقة الإسلامية بالجمال الوجداني، والانفعال الصادق في عجينة واحدة. وهو بمسلكه هٰذا يعد دفاعاً عملياً عن الشعر الإسلامي المتهم بالجفافية الفكرية، على حساب الجمالية الفنية.

وعمر بهاء الدين الأميري -زيادة علىٰ ذلك- متفرد بجانب آخر، لَمَّا ينتبه إليه أحد(*) وهو تقديمه النثري لكثير من قصائده، فالذي لم يدرس عروضاً قد يعتقد أن هٰذا التقديم النثري، داخل في صلب القصيدة- يقول الدكتور جابر قميحة:

وأنا أرى أنه إذا أصر دعاة (قصيدة النثر) علىٰ ادعائهم، لكانت مقدمات عمر بهاء الدين الأميري لقصائده هي المثال الحي لقصيدة النثر(١٣)(●).

وما أطيب وأصدق ما قال فيه سماحة الشيخ أبي الحسن علي الندوي أثناء تقديمه لكتابه رياحين الجنة(١٤):

ديوانه «رياحين الجنة» إثراء للمكتبة العربية والإسلامية

أخي أبا براء:

إن تاريخ الأدب العربي الإسلامي سيحفظ لك إن شاء الله -وهو أمين- ما أسديت إليه من يد بديوان شعرك الأول «مع الله» وما أتبعته بديوان شعر «ألوان طيف»، وقد وجدت في شعرك دائماً لذة ومتعة وسعادة مالا أجده في غيره من الشعر الجديد، وهو -والحق يقال- نفحات من الإيمان وقبسات من نور القرآن، صدق العاطفة، ورقة الشعور، وتصور دقيق لهواجس النفس وخلجات الفكر، وكم تمنيت أن كنت معك في محراب دعائك، وفي لحظات ابتهلاتك وأنت:

مع الله في سبحات الفكر
مع الله في لمحات البصر
مع الله في زفرات الحشا
مع الله في نبضات البهر
مع الله في رعشات الهوى
مع الله في الخلجات الأخر

واليوم تثري مكتبة الشعر العربي الغنية بديوان جديد «رياحين الجنة»، وأقول: هٰذا إثراء خير أو خير إثراء، استقبالك أرواحاً سماوية بريئة حبيبة ممن رزقت من الأولاد والبنات والأحفاد والأسباط، نِعْم البيت الذي أنت سيده، ونعمت الأسرة التي جعل الله مثلك راعيها. والتي تتشرف بأبوتك الغالية المليئة بالحب والحنان.

والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، فقد سعدت نفساً بلقاء المحروس الفاضل براء عمر في ندوة الأدب الإسلامي بلكهنو وكأنّي أسمع إليه وهو يتلو شعره في صوت شجي على ما أُصيب به المسلمون في أرض الفداء .. أقرّ الله به وبمن رزقتم أولاداً وأحفاداً عينك وعين كل محب لك في الله.

أخي:

إنني لم أتعود المجاملة ولا أُحسن صَنعتها ولا أعرف أصنافها وآدابها إنما الشيء الوحيد الذي عرفته في حياتي هو أن الإخلاص لله لا يموت والذي يذكر الله في خلواته وهمساته لن يضيعه الله.